مفهوم الثورة في الفكر العربي المعاصر

مالك بن نبي أنموذجا

أ. د. لعموري عليش(*)

تمهيد

إن الثورة في الفكر العربي المعاصر كانت مثار جدل بين الماركسيين والشيوعيين الإسلاميين، وكل له حجته ودليله، حيث ركز الماركسيون على دور الحراك الاجتماعي في المجتمع، فالطبقة الاجتماعية الكادحة أو «البروليتاريا» هي الأكثر قوة فعالة في التغيير. والإسلاميون أن الدين عندهم قوة فعالة في التغيير وتفعيل الحراك الاجتماعي، وكان هذا عند المسحيين في العصور الوسطى، وفي العصر الحديث أيضا تقول: الكنيسة أن السلطة الدينية هي الأساس في البناء الاجتماعي والسياسي، وهي الفاعل الحقيقي في كل الأدوار المتعلقة بحياة الإنسان فكانت لهم وجهة نظر في فصل الدين عن الدولة، وأن السلطة الدينية أسمى من السلطة الزمنية، ونشأ عن هذا التيار الديني المسيحي والإسلامي، ثورات دامية، فتناحرت وتصارعت البشرية الإنسانية في هذه المجتمعات الدينية من أجل ترسيخ الفكرة الدينية وتثبيتها وهذا عند بعض الناس في حين أن البعض الآخر يحارب كل ما هو ديني والمطالبة بدور الإنسان في بناء المجتمع الإنساني كالمذهب الفرداني الذي جعل من الفرد هو المركز في كل تفكير أيا كان نوعه نظريا أو عمليا.

وقد نجد تاريخ الفلسفة والفكر حافل بهذه المسائل مسألة التغير، مسألة الثورة، مسألة التجديد والحداثة، وهي مسائل لا يمكن فصلها عن الحكم.أو السياسة أو الدولة، وحاول بعض الفلاسفة أن يبحثوا عن العلاقة القائمة بين هذه المسائل ومدى تأثير بعضها في بعض، ومحاولة البحث عن سبل وطرق التغيير والتجديد.

(*) أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة قسم الفلسفة - بوزريعة الجزائر.

وإذا بحثنا في مفهوم الثورة ماذا يعني من الناحية اللغوية والاصطلاحية فإننا نقف على معاني متباينة من حيث التفسير إذ أن الثورة في اللغة تعني التغيير والظهور والوثوب، والهيجان، والقتل وجاء في لسان العرب أن الثورة هي الهيج، يقال انتظر حتى تسكن هذه الثورة، وكذلك يقال ثار الشيء ثورا وثؤورا وثورانا وتثور، ويعني هذا أن الشيء هاج[1] ويقال الإنسان ثارت نفسه، بمعنى جشأت أي ارتفعت وجاشت[2] وقد ورد فعل ثار يثور في القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ قَالَ إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ ﴾ [البقرة: ٧١] بمعنى لا تقلب الأرض، وفي قوله تعالى ﴿ كَانُوٓا۟ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا۟ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا ﴾ [الروم: ٩] أي بمعنى قلبوا الأرض وبلغوا عمقها، وظهر لفظ الثورة مع الحركة العلمية التي بدأت مع علماء الفلك بالخصوص العالم كوبرنيك الذي أطلق على اكتشافه في عالم الفلك كلمة الثورة Révolution وتعني قلب مفاهيم العلم التي كانت سائدة وقتذاك، وطرح مفاهيم علمية جديدة.

إن التفسير الذي يقدمه مالك بن نبي للثورة استمده من المذهب الاجتماعي الإسلامي فهو بعيد عن كل تفسير ماركسي أو تفسير ارتبط بالواقع الاجتماعي الأوروبي بحكم أنه تعلم في أوربا ونهل من ثقافتها حتى الثمالة فلفظ غثها وسمينها لكنه أبقى على عنصر حياتها الذي يتجسد في حسن القيادة أو ما يعرف بالمنهج العلمي فالنموذج الإسلامي الذي تمثله مالك بن نبي في مفهوم الثورة هو أنموذج المجتمع الإسلامي الذي كان بقيادة النبي ﷺ وأصحابه، وقد عمل مالك على تحليل هذا النموذج في كتاباته منقادا وراء صورة حية أو واقعية حدثت في تاريخ البشرية تمثلت في قلب موازين الحضارة وقتذاك، وإعادة النظر في بناء كل شيء بدءًا من الإنسان والأشياء التي تحيط بكيانه، ومحاولة فهم المكان والزمان اللذان يمثلان الدورة التاريخية لأية حضارة أرادت أن تكون أو أبت أنه لا تكون فظهور المجتمع الإسلامي بقيادة النبي أدى إلى إحداث ثورة جلبت معها مبادئ منها التغيير والتجديد والتحديث فحدث التغيير لثقافة المجتمع فحل محلها ثقافة أخرى وبالتالي ظهر مجتمع جديد مغاير للمجتمع الجاهلي مجتمع حاملا معه آليات التحديث الجديدة.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، مادة ثور، ص، ٥٣.

(٢) المصدر السابق، المادة نفسها، ص، ٥٣.

إن هذا النموذج كان أداة قياسية عند مالك فاستعان بمنطقها من حيث التحليل والتوظيف للواقع العربي الإسلامي الذي كان يعيش ضمن نطاقه أو في عصره بصفة عامة، والواقع الجزائري بصفة خاصة حيث أن الثورة الجزائرية كانت تمثل جوهر كتابات مالك بن نبي، سواء بطريقة مباشر ة أو بطريقة غير مباشرة، لأن أغلب كتبه تتحدث عن التغيير من منطلق الواقع العربي والجزائر عنه أنموذجا بالإضافة أن المرجعية التي يستند فيها إلى علاج مشكلات عصره وقتذاك، كانت تتمثل في الثقافة الإسلامية، والتاريخ الإسلامي حيث يستمد منهما عناصر القوة فقط متجاوزا كل العوائق والحواجز التي كانت سببا في سقوط النهضة الإسلامية، لذلك يرى ومن خلال شبكة المفاهيم المتعددة عنده من تغيير وتجديد وتحديث، وثورة أن المجتمع الذي يطلب تجاوز مرحلة الانحطاط وتحقيق نهضة حضارية شاملة يجب عليه أن يوجه جميع طاقته نحو البناء الحضاري في إطار جهد تكاملي ولا يتأتى هذا النظر عنده إلا بتماسك وترابط شبكة العلاقات داخل المجتمع لأن المجتمع المتطور هو المجتمع المتماسك في علاقاته يقول مالك بن نبي: «إذا ما تطور مجتمع ما على أية صورة فإن هذا التطور مسجل كما وكيفا في شبكة علاقاته .... »[1] أما إذا تفككت شبكة هذه العلاقات نهائيا، فإنه يرى أنها إيذان بهلاك المجتمع وزواله، ويبقى فقط ذكرى مدفونة في كتب التاريخ.[2]

انطلاقا من هذا النظر عند تناوله لظاهرة الثورة نجده يؤطر هذه الظاهرة بتصور سوسيولوجي مرجعيته إسلامية.

أولا: مفهوم الثورة عنده

ينطلق مالك بن نبي في تحديد مفهوم الثورة من خلال هذا التصور وهو أن الثورة هي المفجر الذي يحصل بعد تجاوز مجتمع ما مرحلة التحمل في تحرك عجلة المجتمع نحو قدره أو مصيره،[3] بمعنى أن الثورة تفتح مجالات نحو التغيير والتحديث نحو التطور والتقدم،

(١) مالك بن نبي ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين، من إصدار ندوة مالك ابن نبي، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م دار الفكر، ص، ٣٩.

(٢) المرجع نفسه، ص، ٣٩.

(٣) مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، دار الفكر دمشق، سوريا، إشراف وتقديم المحامي عمر المسقاوي، ترجمة الدكتور بسام بركة، والدكتور احمد شعبو ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢ م ص، ١١٩.

وحتى نحو التخلف والزوال إذا لم تستمر صيرورة الثورة، ومالك بن نبي تمثل هذا المفهوم من خلال الثورة الجزائرية التي يرى بأنها النتيجة الحتمية للنهضة الإصلاحية، والحركة الوطنية فهي العمل المسلح لشعب أراد الحياة، وأراد القضاء على كل العوائق والحواجز التي تقف نحو آماله نحو بناءه، نحو مستقبله، بل عزم الخروج من مرحلة القرون الوسطى مرحلة الاستعمار والاستدمار ومهما كان دفع الثمن، أراد الشعب الجزائري بثورته أن يقوض ويهدم معالم وآثار الاستعمار بالنشاط المسلح أثناء حرب التحرير، وبعد الاستقلال بالنشاط المتمثل في الثورة بالمفهوم الحضاري كالثورة الثقافية، والثورة الاقتصادية، والثورة الاجتماعية غير أن أبعاد هذا المفهوم للثورة لم تستمر ويبرر مالك بن نبي استمرار هذه الأبعاد يتم بتحقيق شروط يعد لها وتعد أحيانا؛ حيث حدث بالثورة أن المجتمع الجزائري مجتمعا جديدا بفضل التغيير الذي أحدثته الثورة ما قبل الاستقلال وبعده، لأنه أدت بغالبية الشعب إلى إقامة شبكات اجتماعية موسعة لغرض خدمة القضية الوطنية، وهي: التحرر من كل أشكال الاستغلال والاستعمار والاستدمار فهي تمثل تحقيق الإقلاع الحضاري كما يقول مالك بن نبي، ولما كانت تعريف الثورة أنها تعني:

- النتيجة الإيجابية للحركة الإصلاحية والحركة الوطنية.
- العزم والإرادة على استرجاع السيادة الوطنية.
- الخروج من ظاهرة الاستعمار التي أدت باستدمار الشعب.
- إيقاظ الشعب من غفوته.
- تحريك عجلة الحياة الاجتماعية من عصر الانحطاط إلى عصر الازدهار والدخول في المعترك الحضاري[1].

وبهذا المعنى يرى مالك بن نبي أن الثورة لا يمكن أن تصل إلى أهدافها المرسومة مسبقا إذا لم تغير الإنسان الذي يمثل مركزها الأساسي فلا بد من تغيير الإنسان من حيث سلوكه وأفكاره ونمط حياته واستهلاكه وعلاقاته الاجتماعية.. الخ، ويذهب إلى أبعد من هذا إذ

(١) عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مؤسسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع الجزائر، الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٧ ص، ٢٧٧.

يرى أن أية ثورة ما، لابد أن تسير وفق القانون الإلهي الذي تتضمنه الآية الكريمة ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١] إن هذا النظر العميق للثورة في تصور مالك هو الذي جعله يرى إن ثورة ما، هي في جوهرها عملية تغيير. لكنه يطرح تساؤل ابستمولوجي معرفي بعد هذا الفرض الذي هو، أن هذا التغيير يملك في عمقه أسلوبا يتسم بالسرعة حتى يبقى منسجما مع التنسيق الثوري، وبناء عليه فطبيعة هذا التغيير تتحدد في نطاق الجواب على التساؤل المطروح وهو، «ما هو الموضوع الذي يجب تغييره ليبقى التغيير متمشيا مع المعنى الثوري؟ فالمشكلة في نظره تبد أ من نقطة الاستفهام هذه»[١].

ويرى أن الثورة يجب أن نقف عند منطق معقلها وهو تمثل الثورة والاستفادة منها حيث يقول: «إن تاريخ الثورات في العالم يظهر كم أن مصيرها هش وغير مؤكد بعد انطلاقها»[٢] ويضرب أمثلة من واقع المجتمعات الدولية التي حدثت فيها الثورة بعضها تجاوز مرحلة التخلف بعد فرض رقابة على الثورة للكشف عن الأخطاء ومعالجتها بعد وقوعها ويقدم النموذج الماركسي في ذلك، فقد حلل ماركس(١٨١٨م-١٨٨٢م) كما يرى مالك بن نبي أخطاء «كومون باربس»،[٣] حتى لا تتكرر في أطراد ثوري آخر و إذا ما تكررت في حركات ثورية أخرى فليس هناك غير العملية الساحقة التي سميت بالثورة الثقافية.[٤] وكان مالك بن نبي يتمثل أحداث العالم في طابعها الثوري خاصة العالم الغربي مقارنا بذلك العالم الإسلامي إذ يرى أنه «قد يحدث في أكثر من بلد إسلامي أن تجد البلاد نفسها بعد الثورة في الوضع السابق على الثورة بل ربما أكثر خطورة بل أنها قد تجد نفسها من جديد في ظل إيديولوجيا يسقط من أجلها الأبطال ولا يتعرفون على الأفكار التي من أجلها سقطوا كما لو كانت عجلة الثورة وأفكارها تدور أثناء الثورة اعتبارًا من لحظة معينة نحو

---

(١) مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر دمشق سوريا، ط، ١٤٢٧هـ ٢٠٠٦م ص، ٤٩، ص، ٥٠.

(٢) مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص، ١١٩.

(٣) اسم يُطلق على انتفاضة باريس الثورية ضد الحكومة الفرنسية إثر هزيمة فرنسا في الحرب الفرنسية البروسية Franco-Prussian War وسقوط نابليون الثالث. بدأت في ١٨ مارس ١٨٧١ وأخمدت في ٢٨ مايو في العام نفسه. وقد عُدَّ هذا «الكومون» تعبيرًا صارخًا عن التيارات الجمهورية الوطنية التي عصفت بباريس في تلك الفترة، واعتُبر ـ في الوقت نفسه ـ أولَ تمرُّد قامت به البروليتاريا على النظام الرأسمالي.

(٤) المصدر السابق، ص، ١١٩.

الوراء»[١] والغرابة في ذلك أن هذه الأوضاع تنمو وتتقدم حتى نهاية الثورة دون أن يلحظ في الظاهر أي انقلاب في القيم.

وللعلم أن مفهوم الثورة عنده مرتبط بواقع حي عايشه بصورة مباشرة في غالب الأحيان وبصورة غير مباشرة وهو الواقع الجزائري الذي كان في الخمسينات تحت سيطرة الاستعمار فكانت الثورة لذلك نجده يتحدث عنها في صورة سوسيولوجية «اجتماعية» وفي كل مؤلفاته تقريبا دون أن ننسى أن مالك بن نبي كان كغيره من المفكرين الذين التزموا قضايا وطنهم وانتمائهم الإيديولوجي لغويا وعرقيا فهو يتحدث عن قضايا وطنه وعن الثورة بأنها جزء لا يتجزأ من قضايا الحضارة الإسلامية والنهضة، فقد خصص أكثر من مؤلف لقضية الثورة وقضايا الوطن العربي أيضا وكلفه هذا الاهتمام بالبحث في مسائل قضايا، الثورة، والحضارة، والأخلاق، والاجتماع، والسياسة، تضحيات كبيرة ومن الكتب التي ذكر فيها الاهتمام بسوسيولوجية الثورة الجزائرية كتاب مشكلات الأفكار في العالم الإسلامي حيث خصص[٢] أكثر من موضع في هذا الكتاب للحديث عن الثورة متطرقا لمفهومها السوسيولوجي والتاريخي والديني فاعتبرها ظاهرة قابلة للدراسة الموضوعية بمعايير ومقاييس متنوعة أي دراسة الثورة الجزائرية بمعزل عن منطق الذات، فاعتبرها شيء مادي قابل للمعاينة والملاحظة .وكتابه الصراع الفكري في البلاد المستعمرة تحدث عن الظاهرة الاستعمارية التي كانت سببا مباشرا في ظهور ظاهرة أخرى وهي الثورات في العالم العربي أي تولد عن النقيض، النقيض فكانت القضية، ونجدها في كتبه كتاب آفاق جزائرية، وكتاب في مهب المعركة، وكتاب مذكرات شاهد القرن «مذكرات الطفل والطالب» وكتاب بين الرشاد والتيه في هذا الكتاب الأخير، يطرح فصلا كاملا حول الثورة بعنوان طريق الثورة، متطرقا فيه إلى الاطراد الثوري، الأخلاق والثورة، تقلبات عبر استقلال جديد.[٣] وقد نجده أيضا يتحدث عنها في كتب أخرى له بعنوان شروط الحضارة بصورة باطنية لأن الثورة في نظره هي التي كانت سببا في التغيير والتحديث والبناء بل أنها الحراك الاجتماعي

(١) المصدر نفسه، ص، ١١٩، ص، ١٢٠.

(٢) ينظر كتاب مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي الفصل الثالث عشر، الأفكار والاطراد الثوري من ص، ١١٩، إلى ص، ١٢٩.

(٣) مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر دمشق، سوريا، ينظر من ص، ٧ إلى ص ٢٩.

الذي تولد عنه ضرورة التفكير في وضع أنموذج لمجتمع جديد يجسد بناؤه الماضي والحاضر والمستقبل في العالم العربي مقابل لمجتمع الآخر الغربي ينافسه يسايره وجودا ماديا وثقافيا ومن هذه الكتب كتاب حديث في البناء الجديد، وكتاب من أجل التغير وكتاب بين الرشاد والتيه وكتاب القضايا الكبرى وكتاب تأملات، وكتاب شروط النهضة،

إن تحليلات مالك بن نبي لمشكلات الحضارة ودعائمها كالثورة على الخصوص كانت نتيجة معايشة فكره للصراع المادي الحضاري بين العالم الغربي والعالم العربي، والصراع الثوري الذي قامت به الحركة الوطنية، والحركة الإصلاحية، وكانت معايشته لهاتين الحركتين خاصة معايشة روحية ومادية، حيث كان وجدانه ونضاله وقلمه كل مسخر لها. سواء كان في الجزائر أو في المهجر، وقد ذكر هذا بنفسه في مذكرات شاهد القرن والتي هي أصدق تصوير في نظري للصراع الذي عايشه مالك بن نبي، وتحمل المشاق التي يذكرها في مذكراته لأجلها. فعاش مرحلة ما بعد الثورة «مرحلة الاستقلال» مناضلا ومدافعا عن تاريخ الجزائر والسياسة الجزائرية الحقة التي كان يعتقد دائما أنها وفية لمبادئها الروحية مبادئ بيان أول نوفمبر ١٩٥٤م وفية لرسالة الشهداء، ووفية لميثاق الأحياء ,

ونجد مالك بن نبي كغيره من المفكرين والباحثين في طرحه لفكرة الثورة في كتاباته من الناحية السسوسيولوجية معتمدا على مرجعية معرفية تمثل مدرستين في علم الاجتماع لهذا كانت تحليلاته مبينة على نقد المدرستين المدرسة الأمريكية، والمدرسة الماركسية.

التحليل الاجتماعي للثورة

١- المدرسة الأمريكية ومن أعلامها سوروكين[1] (١٨٨٩م- ١٩٦٨م) وهو صاحب كتاب سوسيولوجية الثورة ويعتبر مؤسس اجتماعية الثورة، مع العلم أن هذا الكتاب نتيجة تجربة

(١) من الأعمال التي قام بها سوروكين، والتي استغرقت من وقته ما يقارب عشر سنوات أو أكثر هذه الدراسة الموسومة بعنوان ديناميات التحولات الاجتماعية والثقافية social and cultural dynq;ics وألف عنه كتاب ريمرمان ١٩٦٨م كتاب بعنوان: أعظم علماء الاجتماع في العالم وهو بيتريم سور وكين. عالم روسي ولد بتوريا في شمال روسيا دخل كلية المعلمين تخرج منها سنة١٩٠٦م ثم تابع دراسته في جامعة سان بطرسبرغ ونال منها الدكتوراه سنة ١٩٢٢م.

شخصية عايشها في السنوات الأولى للثورة السوفياتية قبل أن يهاجر إلى أمريكا .والفكرة الأساسية التي يتضمنها الكتاب فكرة علاقة الثورة بانحرافات تلحق بالسلوكات البشرية، انحراف الشعور بالملكية علاقات العمل، علاقات السيادة والتبعية، المواقف الأخلاقية والدينية والجماعية ويتبع في هذا الجمع والإحصاء الدقيق للانحراف والشذوذ الثوري بمحاكمة الأوهام الثورية فهو يصف الثورة بأنها بائعة أوهام وفي نظره وغيره أيضا من علماء الاجتماع الأمريكي امرأة بغي في مجال النظام الاجتماعي وذلك الجد الأكبر وأن الصورة الجنسية التي تسير خطوات سوروكين[1] والبرهنة التي يجهد نفسه في تقديمها فيما يتعلق بالتغير في التركيب البيولوجي للشعب ولعملية التكاثر هي أكثر من سذاجة في اللغة وليس عجبا أن ينتشر هذا اللون من علم الاجتماع في أمريكا قامعا الثورات والحركات التحررية[2].

٢- تؤسس المدرسة اللينية اجتماعية الثورة على المسلمات الآتية:

أولًا: ارتباط الثورة بالطبقية الاجتماعية فالثورة البرجوازية تقوم على أنقاض المجتمع الإقطاعي والثورة البروليتاريا تقوم على أنقاض المجتمع الرأسمالي.

ثانيًا: حتمية الثورة تكون ناتجة عن انهيار الرأسمالية وهي نتيجة علمية للجدلية التاريخية لأن على حد زعمهم لا يتطرق إليها الشك.

ثالثًا: ضرورة اتحاد عمال العالم من أجل الإطاحة بالنظام الرأسمالي، ويكون بمسلك العنف.

رابعًا: الثورة الاجتماعية الماركسية وبالتحدي الشيوعية ترتكز على حزب واحد وهو الحزب الشيوعي والذي هو بدوره يقوم ويرتكز على البروليتاريا وهو الطليعة الثورية.

خامسًا: يعترف منظروا الفكر الشيوعي بالانحرافات والشذوذ الاجتماعي والسياسي والأمراض الطفيلية للثورة وهذا ما جعلهم يسطرون لها قيما يطلقون عليها «أخلاقيات الثورة».

---

(١) بتريم سوروركين، المدرستان الاقتصاديتان والميكانيكية في علم الاجتماع، ترجمة صائم الكعبي، دار الحداثة، بيروت، ١٩٧٩م

(٢) عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار شهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر، ص، ٨٤

سادسا: يتميز الفكر الماركسي أنه فهم جديد للتاريخ وتحليل مادي لوقائعه وذلك بناء على العلاقة بين الإنتاج ووسائل الإنتاج وعنها تكون الثورة في بعدها الاجتماعي وبعدها الاقتصادي، وهذا ما جعل ماركس يقف عند أسباب تطور التاريخ من خلال التمييز بين عاملين أساسين هما:

أولا: العامل المحرك لعملية تطور التاريخ وهو ما يسمى بالعلاقة بين وسائل الإنتاج والإنتاج وأيا كانت طبيعة هذه الوسائل سواء كانت حجرية أو معدنية أو طاقة حيوية أو بشرية أو طاقات حديثة، ويستخدم ماركس مفهوم البنية التحتية Infra structure ليعبر عن العلاقة الثورية بين الإنتاج ووسائل الإنتاج، وهذه البنية التحتية هي بنية اقتصادية وهي العامل المستقل في عملية التطور التاريخي.

العامل المتأثر أو التابع وهو عامل الأفكار والنظام السياسي والقوانين والقيم الأخلاقية وطبيعة العلاقات الاجتماعية ونوعيتها وبمعنى عام جملة المظاهر الثقافية والحضارية التي تميز عصر ما. وأطلق ماركس على كل هذا بالبنية الفوقية. والفهم الماركسي للتاريخ وحركيته يقوم على أن البنية الفوقية التي هي عامل تابع، نتيجة حتمية للبيئة التحتية التي هي عامل مستقل.

وهناك مسألة مهمة في فلسفة ماركس وهي مسألة الصراع الطبقي الذي يمثل عنده مبدأ ديناميكي في عملية تطور التاريخ لأنه يرى أن في كل مرحلة من مراحل التاريخ البشري توجد طبقة سائدة مسيطرة على جميع الطبقات الأخرى وهذه الطبقة السائدة هي الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج من عقارات وأموال وحكم، وإلى جانب هذه الطبقة توجد طبقات أخرى مضطهدة ومستغلة تعاني من البؤس والشقاء وهي لا تملك سوى طاقة العمل فهي تبيعها للطبقة التي تملك أو المسيطرة مقابل يكفل بقاءها على قيد الحياة، لكن هذا الوضع الاجتماعي لا يستمر ولا يدوم لأن هناك شروط تتجمع وتتراكم وتشكل المفجر الحقيقي لزوال هذا الحال. ويحدث التغيير وتتفتت البنية الاجتماعية القائمة وتتلاشى أواصرها فتنقلب الأوضاع وتصير الطبقة السائدة من قبل مقلوبة متقهقرة، أما الطبقة التي كانت محرومة من قبل تحل محلها وتصبح سائدة، وهذه هي الحتمية التاريخية الماركسية لأن مراحل تطور التاريخ، هي في الأصل مراحل حتمية تمليها شروط مادية تمثلها العلاقة القائمة بين الإنتاج ووسائل الإنتاج، ومبدأ التناقض القائم بينهما في غالب الأحيان.

لهذا يرى، أغلب الباحثين أن اجتماعية الثورة تقوم على هذين النوعين من التفسير والتحليل هذا، ويرى البعض منهم أن إمكانات التفسير الاجتماعي للثورة من غير الممكن أن تحصر في هذين الأنموذجين، والدليل على هذا تحليل مالك بن نبي للثورة حيث تجاوزهما بنوع من الجدارة وبفكر علمي موضوعي مستلهما قوة التحليل بتوظيف المنهج السليم في فهم الحضارة والتنمية الاقتصادية ومحاولة تأسيس أطر سياسية لها من الإسلام ولعل هذا في نظري مسألة طبيعية بالنسبة لشخصية مالك بن نبي لأننا نجده في كثير من كتاباته ومقالاته يؤمن بالاستقلال وضرورة الإبداع خصوصا في المجالات الفكرية والثقافية والحضارية، فهو يرفض التبعية ويطالب بالاستقلال والحرية، فمثلا نراه يدعو إلى منع الاستيراد للمنتوج الغربي منعا باتا وذلك لما ينجر عنه من هلاك يؤدي إلى عواقب وخيمة، وقد عاش مالك محنتها وذاق مرها في واقع العالم الإسلامي المريض الذي يريد البعض ممن يؤطرونه سياسيا واجتماعيا أن يعالجونه بدواء من صيدلية الغرب لكن من دون التفكير في علة المرض يحاولون العلاج من منطلق تشخيص الأعراض دون التفكير في القضاء على علة المرض وهنا المشكلة كما يقول مالك بن نبي مشكلة تخلف المسلمين .فهو يقول: «نحن نعتقد أننا نبني إذ نقوم بالتكديس، كما لو كان البناء يمثل مرادفا للتكديس المعدات والأشياء ... وحتى عالم أفكارنا لا يمثل بناية ولكن مجرد كدس من الأفكار فالذرية أعني صعوبة أو استحالة إقامة بنية عقلية إنما تمثل الانعكاس البسيط لافتقار عالمنا النفسي لبعد معين هو الفكر»[1] هكذا ينظر مالك بن نبي للمشكلات في العالم العربي الإسلامي الأساسية من خلال مرجعياتها أو مصادرها ويعمل على تفسيرها تفسيرا ثوريا أو منطلق الحراك الاجتماعي الثوري يقول مالك بن نبي: «إن التكديس في المجتمع ظاهرة مضرة وهي تظهر حتى في الأفكار فقبل خمسين سنة نتكاتب ونتراسل في رسائلنا الأدبية والودية فنبتدئ بعد الحمد لله بعشرة أسطر من الديباجات التقليدية، والألقاب ومن ثم نقول والحمد لله أنا بخير وأرجو أن تكونوا بخير والسلام عليكم»[2] ويستمر مالك بن نبي يصف ظاهرة التكديس بهذا الوصف الاجتماعي والواقعي من خلال معاينته الشخصية حيث أن ظاهرة

(١) نقلنا هذا النص عن كتاب عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، ص، ٣٠٢.

(٢) مالك بن نبي تأملات، ص، ١٦٧. دار الفكر العربي الجزائر، دار الفكر دمشق سوريا.

التكديس في مجال الأفكار يراها مستمرة في أيامه إذ أن أغلب الكتب المعروضة في المكتبات العربية تتضمن تكديسا من نصوص إبداع الغير سواء القدماء من المسلمين أو المحدثين من الغربيين وما تحمله مضامينها إلا جمع للألفاظ المتقاربة المعنى والدلالة حيث إذا تصفحنا كتابا وتأملنا فصلا يتحدث عن مشكلة الفقر مثلا «ترى كل ما يتعلق بالحياة الاقتصادية من الحديث عن المصاريف والبضاعة والأسواق أي بكل ما يتصل بكلمة فقر وما يقابلها من غنى وثروة ذلك لأن كلمة الفقر توحي بهذه المعاني جميعا فهذا ضرب من تداعي المعاني والأفكار، إذ أضع كلمة وآتي بكل الأفكار التي تدخل تحتها ومن الطبيعي أن هذا ليس ببناء، ولكن تكديس وجمع للمفردات لا يؤدي إلى حل المشكلات ولا يأتي بنتيجة إذ القارئ لا يشعر بأنها قدمت له حقيقة»[1].

إن المجتمع الإسلامي الذي انخرط في تيار التكديس لمنتجات الحضارة الغربية والذي يعتبره السبيل الوحيد الذي يحقق النهضة المنشودة راح يعمل على تكديس منتجات حضارة الآخر الأوروبي وبصورة غير معقولة ولم يعلم بأن هذا التكديس يؤدي إلى التبعية والتلاشي وإلى الزوال من الوجود وكذلك يخلق مشكلات كمشكلة العجز عن الإبداع والمسايرة للتطور الحضاري الذي يحيط بنا.

ومالك بن نبي يستقي ملاحظاته بدقة ومن الواقع ويقدم أمثلة تعبر بحق عن عجز المجتمع الإسلامي الذي يكمن في الأشياء ويظهر هذا من خلال مضاعفة تكديس الأشياء التي نخفي نقصنا عن طريقها فيقول: «ولكن روح التكديس والشيئية التي يجب التخلص منها، ما انفكت مستمرة البقاء، وهي قد تتبدى أحيانا تحت مظهر مشتط في الهزل، وذلك عندما نلاحظ ـ إذ نعبر العالم الإسلامي ـ أربعة أجهزة للتكييف الهوائي في مقصورة أحد رؤساء المصالح أو خمسة أجهزة هاتفية على مكتبه»[2] ويقدم مالك بن نبي وجهة نظر من خلال تحليله للنتائج التي تؤدي إليها تلك الانحرافات الفكرية والمنهجية التي تقوض المنطلق الصحيح للنهضة في العالم العربي الإسلامي، لأن: «الحضارة حينما تكون في حالة شتيتة أو تمثل على صورة سائبة لا تمثل حضارة، ولكن ركاما مكدسا من الأشياء المشتتة،

(١) مالك بن نبي المصدر نفسه، ص، ١٦٧.

(٢) مالك بن نبي القضايا الكبرى، ص، ٥١.

الفاقدة للتآلف في قليل أو كثير حتى ليمكن أن نتمثلها في صورة متحف من الطرف المستغربة والمثيرة للاستطلاع، أو سوق للسلع الزهيدة القيمة والبضائع الكاسدة والبائرة»[١] فظاهرة التكديس لا تؤدي إلى التغير في البنى الاجتماعية ولا تحرك العقول نحو العمل والبحث عن الجديد إنما تجعلنا نحمل في ذواتنا أفكارا لا تحرك الضمير الاجتماعي وتجعل من عقلنا لا يتعدى الأفق[٢] لأن «المقياس العام في عملية الحضارة هو أن الحضارة هي التي تلد منتجاتها وسيكون من السخف أن تنعكس هذه القاعدة حين نريد أن تصنع حضارة من منتجاتها»[٣] يقول مالك بن نبي: من أي شيء يبدأ بناء الحضارة؟ وهذا السؤال يفرضه المنطق، فأنا إذا فكرت في البناء، فإن على أن أعلم بأي شيء أبتدئ وهذا السؤال المركزي يجره إلى الجواب قائلا: «أن أول ما يجب علينا أن نفكر حينما نريد أن نبي حضارة أن نفكر في عناصرها»[٤] ويقوم مالك بتحليل هذه العناصر والتي هي الإنسان، والتراب، والزمن، مستخدما في هذا التحليل المنطق العلمي خاتمته قوله «أنا إذن حينما أحاول التخطيط لحضارة فليس علينا أن أفكر في منتجاتها وإنما في أشياء ثلاثة , هي الإنسان والتراب والوقت، فحينما أحل هذه المشاكل الثلاثة حلا علميا قد كونت المجتمع الأفضل، كونت الحضارة التي هي الإطار الذي فيه تتم للفرد سعادته، لأنه يقدم الضمانات الكافية الاجتماعية»[٥].

التحليل الاجتماعي للثورة الجزائرية

من دون شك أن هناك دراسات كثيرة للتحليل الاجتماعي للثورة الجزائرية خاصة بعد الاستقلال[٦] لكن الدراسات التي اهتمت بالثورة كأنموذج لحركة التفكير الذي يدفع بعجلته نحو بناء صرح حضاري متميز للمجتمع الجزائري على الخصوص دراستان

(١) المصدر نفسه، ص، ٥٧.

(٢) قادة بحيري، محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي، ص، ١١١.

(٣) مالك بن نبي، شروط النهضة، ص، ٤٦.

(٤) مالك بن نبي، تأملات، ص، ١٦٧.

(٥) نفسه، ص، ١٧٠.

(٦) ينظر كتاب لزهر بديدة، دراسات في تاريخ الثورة الجزائرية وأبعادها الإفريقية، الناشر دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر، وكتاب د. احمد حمدي الثورة الجزائرية والإعلام، دراسة في الإعلام الثوري، نشر وزارة الثقافة بالجزائر بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٧.

للثورة(*) دراسة فرنتز فانون(١٩٢٥م ١٩٦١م) التي جسدها في كتاباته ودراسة مالك بن نبي أيضا هو الآخر يتطرق إلى التحليل الاجتماعي للثورة في جل كتاباته

فرنتز فانون والثورة الجزائرية

إن المفكر فانون اهتم بقضية الثورة الجزائرية وشارك فيها حيث نشر مجموعة من المقالات ذات الطابع السوسيولوجي والنفسي «العقلي» في جريدة المجاهد(١) إلى جانب بعض المقالات السياسية وتبقى مشاركته في هذه الجريدة مشاركة سرية، مع العلم أن له دور فعال في التوجيه السياسي للجريدة، وكانت له علاقات حميمية بين أعضاء الجريدة وكان أعضاؤها اللذين يمثلون الإدارة لا ينشرون إلا المقالات التي يوافقون عليها وتتماشى والاتجاه السياسي الذي يلتزمون به وكان على فانون أن يلتزم هذا الخط السياسي ويعمل في نطاق مسعاه، والمتتبع للمقالات فانون فإننا نجدها تركز على أربعة مسائل أساسية وهي:

- الاستعمار الفرنسي في الجزائر.
- ردود فعل اليسار الفرنسي بما في ذلك الحزب الشيوعي.
- مواقف جبهة التحرير الوطني تجاه الأقليات.
- أحداث إفريقيا.

وما يجب قوله أن هذه المقالات لا تمثل الإطار المرجعي الوافي للتحليل النظام الاستعماري إنما هذه المقالات هي مجرد وصف ظواهر سياسية واجتماعية داخل المنظومة الاستعمارية لأن الفكرة السائدة آنذاك والممثلة للواقع السياسي هي تأكيد فرنسا بكل

(*) هناك كتابات ألبير كامو نجدها تتحدث عن الواقع الجزائري أثناء الثورة ويتحدث عنها في أغلب رواياته بلغة سسيولوجية. رواية الطاعون ورواية السقطة، والزواج السعيد.

(١) كانت مساهمة فانون في جريدة المجاهد من سنة ١٩٥٧ - ١٩٦٠م وأول عدد ظهر منها جوان سنة ١٩٥١، وكانت هذه المجلة باللغة العربية والفرنسية، وأول مقال لفانون ظهر شهر سبتمبر سنة ١٩٥٧ في (أطلوان) بالمغرب لما كان مقر المجاهد بهذه المدنية، وما يلفت الانتباه أن كل المقالات كانت تنشر دون أسماء أصحابها.

سلطاتها وتنظيماتها السياسية والطبقية أن الجزائر هي امتداد طبيعي لها، وإن موقفا مثل هذا لا يساعد على إيجاد حل لمشكلة الجزائر وإنما يزيد من تعقيد المشكلة وتأزمها مما انعكس على علاقة اليسار الفرنسي بالثورة الجزائرية من جهة، وبفانون من جهة أخرى وهذا ما جعل فرتنز فانون أن يكتب ثلاث مقالات تحت عنوان: «المثقفون والديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية»[1].

وتذكر سجلات الثورة الجزائرية أن فرنتز فانون ألتحق بصفوف المجاهدين سنة ١٩٥٦م وعين من طرف الجبهة سفيرا للحكومة المؤقتة للثورة الجزائرية وبقي يناضل بفكره وجهاده السياسي حتى أن وافته المنية في ديسمبر عام ١٩٦١م وفانون كان له رأي يخالف الإيديولوجية الماركسية التي كانت تتمركز فلسفتها حول فكرة الطبقة الاجتماعية التي تمثلها البروليتاريا الكادحة التي تصارع الموت من أجل الحياة إذ يرى أن الثورة مجرد عملية تمرد لا غير، حتى يرى أن الثورة تمرد لا هدف له ونظر إلى العنف كظاهرة تحمل في كيانها بذور التحرر من العقد النفسية التي يعاني منها المستعمر والتي ورثها من المعمر ويكون العنف الذي سيوجه ضد المعمر نتيجة لهدم استلابه النفسي المتمثل في الخوف من المعمر ويدل هذا أن فانون يعزو إلى العنف لاعتباره أنه القدرة على أحداث التطهير النفسي والتغيير العقلي.[2]

إن رأي مالك بن نبي كان واضحا من طرحه لفكرة الثورة وجاء مخالفا لرأي فانون الذي اعتبر عند بعض مؤرخي الثورة بأنه المنظر للثورة وهذا الرأي المخالف يسنده مالك إلى معايير موضوعية بعيدة عن كل المعايير الذاتية منها:

أولا: أن فانون ليس متدينا بل كما يعلم الجميع ملحدا ولا يقاسم الشعب الجزائري كل معتقداته يقول مالك: «إننا نظلم فانون نفسه عندما نجعله كما أريد ذلك يلعب دور صاحب النظرية الثورية الجزائرية، فلكي يتكلم المرء لغة شعب معين يجب أن يقاسمه معتقداته: وقد كان فانون إنسانا ملحدا»[3].

---

(١) المقالات الثلاث صدرت بتاريخ ١، ١٥، و٣٠ ديسمبر سنة ١٩٧٧ جمعت كلها في فصل تحت عنوان «المثقفون الديمقراطيون الفرنسيون أمام الثورة الجزائرية».

(٢) فانون، معذبوا الأرض، تر، سامي الدروبي، وجمال الأتاسي، دار القلم، بيروت، ١٩٧٢م، ص، ٥٠، وص، ٥١.

(٣) مالك بن نبي، القضايا الكبرى، ص، ١٠٩.

ثانيا: إن فانون من المنظرين الكبار والبارزين للأيديولوجيا الإفريقية والدليل، كتاباته،

- Peau noire masques blancs.
- Pour la révolution Africaine.

ولعل هذا ما جعل مالك بن نبي يقول «ولكننا سنظلمه كذلك إذا ما نسينا أو قللنا من قيمة دوره في تشييد مفهومية إفريقية ففي هذا الميدان يمثل (فانون) كلا متكاملا، لأنه يحمل في روحه: كل روح إفريقيا، وكل تاريخها، وكل ماساتها.»[1] ويعني هذا أن مالك بن نبي وقف موقفا معتدلا في تقييم فلسفة فانون بعيدا عن الذاتية والمحاباة وراح يحلل اتجاهه نحو الثورة في العالم الإفريقي من منطلق المفهومية كما يقول.

ثالثا: إن فانون بعيد عن الطاقة الجماعية التي كانت السبب الأساسي في اندلاع ثورة الجزائر، وهذا ما لا يمكن لفانون أن يكون نشيدها الذي حشد كل همم الشعب الجزائري وطاقته ومن غير المعقول أن يتمثل كيان وجوده من عنصر أجنبي فلا بد من أن يتوقف وجوده على الأصل لهذا يرى مالك بن نبي: أن فانون يمثل الموسيقى العظيم القادر على استخراج أصفى النبرات الثورية من الروح الإفريقية، فقد كان فنه رائع الحمية كما كانت شبابه يقدم أحيان أشجى الألحان الثورية وأشدها إثارة للعواطف، ولكن عند مالك بن نبي أن فانون سجله الشخصي البالغ الخصب من جوانب أخرى: «أنه كان يفتقد اللمسة التي تهز الروح الجزائرية وتصلها بذلك الرعش المقدس الذي دفع بالشعب الجزائري إلى النضال المحرر والذي يتعين اليوم أن يدعم انطلاقته الثورية إلى حظائر الشغل والعمل.»[2]

رابعا: يستند مالك بن نبي في نقده لفانون من التاريخ إذ يرى أن هذه الروح الجماعية التي تلهب النفوس حماسا وتؤجج فيهم الثورة والنضال وتؤدي بهم إلى النصر لا محال وتكون بالنشيد الذي تكون من طاقة الشعب كله، والتي تعبر عن روح الشعب الكلية، وتنطبق

---

(١) المصدر نفسه، ص ١٠٩. ويعني هذا أن مالك بن نبي وقف موقفا معتدلا في تقييم فلسفة فانون بعيدا عن الذاتية وال.

(٢) نفسه، ص، ١٠٨.

أيضا على جميع الثورات دون استثناء .ويسوق مالك دليل مادي على ذلك فيقول: «فليس رفاق (غاندي) من الإنجليزيين أمثال بيرس والآنسة «سلاد» Pearson et Miss Slade هم الذين ألقوا النشيد العظيم الذي أقتاد الجموع الهندية إلى (التحرير) ولكن (المهاتما غاندي) نفسه هو الذي جمع جوهره من ذات روحه المفعمة بحمية الهند كما لم يكن أمريكيا ذلك الذي ألف النشيد الوطني الفرنسي المدعو بالمارسيلية (La Marseillaise) أو نشيد تجمع العمال الثوريين المدعو بالدولية (L'internationale)»[1].

إن المرجعية التي كون فيها مالك بن نبي فكره، هي في الأصل كانت الدافع في وضع هذا الفكر النير و إخراجه إلى الوجود الإنساني والتي تصب منابعه كلها في النهج الإصلاحي بكل أبعاده تمثلت في كتاب الله وسنة رسوله في بادئ الأمر ثم بعد ذلك تجسدت في كل التراث الإسلامي في عهد النبي ﷺ وبعده، عهد الصحابة رضوان الله عليهم[2] ويظهر هذا التأثر عند مالك بن نبي بهذه الثقافة الإسلامية من خلال كتابه الظاهرة القرآنية، لهذا فيرى أن الثورة الإسلامية التي ظهرت مع النبي في صورتها الحضارية، أي صورة البناء. القائمة على الفكرة الدينية لذلك أن كل حضارة يجب أن تتفاعل عناصرها مع الفكرة الدينية لأنها المقوم لها بل أساس تطورها واستمرارها.

وينظر مالك بن نبي للحضارة أنها ليست جمع لمنتوج حضارة الآخر وتكديسها أو جمع بقدر كاف للأشياء والأفكار والمنتج المادي إنما هي بناء قام على محاولات استخلاص واستثمار النتائج المادية للحضارات عبر مسارها التاريخي و إعادة رسكلتها بالعقلية الذاتية الخاصة بالإنسان العربي من هويته الخاصة.

فالحضارة تجربة مخططة، فالعالم العربي الإسلامي إذا أراد أن يجتاز المرحلة نفسها التي اجتازت عليها بعض الشعوب التي عرفت التكديس في الحضارة ثم محاولة الرسكلة والبناء كالشعب الصيني، والشعب الياباني فعليه أن يجتاز المرحلة نفسها، بمعنى ينجز مرحلة مهمة وهي تركيب الحضارة في زمن معين ولذا يجب عليه كما يقول مالك: بن نبي "أن يقتبس

(١) المصدر نفسه، ص، ١٠٨.

(٢) كل محتوى كتبه تحمل مضامينها هذه الثقافة الدينية في مراحلها الأولى.

من الكيميائي طريقته فهو يحلل أولا المنتجات التي يريد أن يجري عليها بعد ذلك عملية التركيب، فإذا سلكنا هنا هذا المسلك قررنا أن كل ناتج حضاري تنطبق عليه الصيغة التحليلية الآتية :

ناتج حضاري = إنسان +تراب + وقت.[1]

إن بناء أية حضارة وجودها لا يكون بالأطر الغيبية أو بالتمني أو بالانتماء الحضاري ومن دون العمل بل يكون بناؤها موجودا متى كان العمل حاضرا بقوة، وليس بصورة اعتباطية إنما بصورة منهجية فنية مطبوعة بطابع العلم لأن أساسيات العلم التحليل والتركيب اللذان يشكلان في النهاية القانون العلمي الذي يفسر الظاهرة أو الموجود.

إن أساس الثورة عنده هي مشكلة الأفكار في النهاية لأنها هي التي تنظم خطانا وتدفع طاقتنا إلى الحركة والمضي نحو التغيير والتحديث وتدخلنا الأفكار إلى باب الحضارة.

والحضارة إذا كانت في نظر مالك تعني الإنسان والتراب والزمن وعلاقة هذه العناصر بالعوالم، عالم الأشخاص، وعالم الأفكار، وعالم الأشياء. والثقافة في وظيفتها هي أسلوب حضارة تعمل على تفعيل ودفع الإنسان بإمكاناته ووسائله في إطار القنوات الأربع، المبدأ الأخلاقي والذوق الجمالي، والمنطق العملي، والتقنية، فمسيرة الحضارة هذه تسير نحو المجتمع، قوة، وضعفا، ودفعا، وهونا، وصعودا، وهبوطا، تبعا لدرجة تمحوره حول الأفكار أو حول الأشياء المحيطة به، ولنا أنموذجان من الحضارة لأن لكل حضارة نمطها وأسلوبها وخيارها، فالعالم الغربي ذي الأصول الرومانية الوثنية أنحاز بصره إلى ما حوله وما يحيط بوجوده نحو الأشياء، في حين أن الحضارة الإسلامية عقيدة التوحيد المتصل بالرسل قبلها سار خيار نحو المعرفة، ولما يجري في عالم الماورائيات نحو التطلع الميتافيزيقي (الغيبي) نحو الأفكار ويجب تجاوز جزء من هذا الإطار المرجعي جزء آخر منه وهو التزام النظرة الواقعية والموضوعية في تفسير عناصر الحضارة. والدليل أن التحليل التاريخي لهذا المركب الذي ينتج عنه الفعل الحضاري موجود فعلا في الفكرة الدينية التي رافقت دائما تركيب

(١) مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، ١٩٨١ دمشق، سوريا، ص، ٤٤.

الحضارة خلال التاريخ يقول محمد شاويش:[١] «دور الدين إذن في الحضارة هو دور العامل المركب لعناصرها واختفاء هذا الدور يعني تحلل هذه العناصر إلى وضع غير مركب أي تحلل الحضارة..» ومالك بن نبي يرى بأن هذه الفرضية تنطبق على جميع الحضارات فالحضارة الغربية في رأيه بنتها الفكرة المسيحية التي دفعت البداوة الجرمانية بعد ستة قرون من الإسلام إلى تكوين هذا الكيان الذي أسسه شرلمان ويرى، كذلك أن تطور الإنسانية مرتبط بنمو مشاعرها الدينية المسجلة في واقع الأحداث الاجتماعية التي تطبع حياة الإنسان وعمله على وجه الأرض لذلك أن مشكلة الحضارة في نظرة تنحل إلى عدة مشكلات أساسية مشكلة الإنسان ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت، وبناء الحضارة لا يكون بتكديس المنتجات ونقلها من الآخر، وإنما عن طريق معالجة وحل هذه المشكلات الثلاثة من أساسها. وينتبه مالك بن نبي إلى مسألة هامة وهي مخاض الحضارة قبل ميلادها، حيث أن هذه العناصر ليست بالضرورة منتوج حقيقي لفعل حضاري معين أو حضارة بذاتها، إنما قد يجد لها اعتراض كالقول بأن هذه العناصر الثلاثة موجودة، ولكنها لا تنتج هذا الناتج الحضاري تلقائيا. وهذا ما دفع بمالك بن نبي يوضح المسألة بنظر علمي، باللجوء إلى تفسير المعادلة من منطق العلم حيث يقدم دليلا من العلم الكيميائي قائلا: «فالماء في الحقيقة نتاج للهيدروجين والأوكسجين، وبرغم هذا فهما لا يكوناه تلقائيا فقد قالوا: إن تركيب الماء يخضع لقانون معين يقتضي تدخل (مركب) ما من دونه لا تتم عملية تكون الماء، وبالمثل لنا الحق لي أن نقول: إن هناك ما يطلق عليه (مركب الحضارة) أي العامل الذي يؤثر في مزج العناصر الثلاثة بعضها البعض فكما يدل عليها التحليل التاريخي الآتي مفصلا نجد أن هذا «المركب» موجودا فعلا في الفكرة الدينية[٢] التي رافقت دائما تركيب الحضارة خلال التاريخ إن هذه الفكرة وهي من دون شك فكرة استقاها مالك من قراءاته في تاريخ الفكر الإنساني لأننا نجدها مبثوثة في كتاب البحث التحليلي لأوروبة ل «كيسرلنج» ويسميها Ethique وهي أ، المركب لعناصر الحضارة هو المبدأ الأخلاقي واستفاد من كتاب محمد وشارلمان ل «هنري بيرين» وكتاب أوروبة وروح الشرق ل (فالتر شوبرت) حيث

(١) محمد شاويش، مالك بن نبي وشروط النهضة، التبيين، عدد، ١٩ – ص، ٨٩.

(٢) ينظر شروط النهضة، لمالك بن نبي، فصل، أثر الفكر الدينية في تكوين الحضارة. من ص ٦١ إلى ص ٧٢.

أن الفكرة السائدة في هذا الكتاب أن أعظم ارتكاز للحضارة الأوربية كان على روحها الدينية.[١]

تحليل مالك بن نبي الاجتماعي للثورة الجزائرية

وظف مالك بن نبي في بناء المفهومية الخاصة بالتحليل الاجتماعي للثورة الجزائرية النموذج الإسلامي ذو المرجعية الواسعة والأرضية المتينة التي تقوم على أسس دينية وأخلاقية واجتماعية ونفسية نقدية فهو يعتمد على هذا التحليل على ما يلي:

أولا: تحليل النموذج الإسلامي الأسمى والمتمثل في الثورة الإسلامية بقيادة محمد الرسول عليه الصلاة والسلام.

ثانيا: تحليل الأساليب والمسالك التي يتخذها الاستعمار في تثبيط عزيمة الثوار والإطاحة بالأفكار الثورية.

ثالثا: العمل على فهم أخلاقيات الثورة وتحليها.

رابعا: تحليل مفهوم الثورة كمفهوم اجتماعي، والنقد الذاتي لها.

خامسا: الدعوة إلى قيام علم اجتماع خاص بمرحلة الاستقلال

ففي النموذج الأسمى للثورة: يجسد مالك النموذج الأسمى، في الدولة الإسلامية التي قامت على الفكرة الدينية الإسلامية بقيادة النبي محمد فكان بناء أساسها القرآن والسنة وقد أثبت تاريخ ثورتها التغيير في أوسع معانيه حيث شملت كل البناءات السياسية والاجتماعية والأخلاقية والثقافية في المجتمع الجاهلي وبعده فغيرت كل ما كان رائجا في هذا المجتمع من عادات وتقاليد وعبادات وحتى أسماء الأشياء والموجودات وأسماء البشر وذلك لما تتضمنه معانيها من وثنية عمياء وجاهلية قاتمة، وقدمت البديل مكانها فكان بديلا حضاريا راقيا، نقل البشرية من حد الهمجية إلى حد المدنية. ويلخص لنا مالك بن نبي ما سبق في قوله: «أننا لو اعتبرنا الإسلام من جهة التاريخ المجردة، لرأيناه ثورة كبيرة،

(١) محمد العبدة، مالك بن نبي، مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، دار القلم، دمشق.

غيرت كل البناءات السياسية والاجتماعية والأخلاقية والثقافية في المجتمع الجاهلي إننا نراها في أصعب الظروف قد غيرت كل شيء حتى أسماء معتنقيها، فكانت النمو الثوري في أدق ما في هذه الكلمة من معنى.»[1] ويواصل مالك بن نبي في تحليل هذا النموذج إذ يرى أن الثورة الإسلامية قدمت لنا درسا عاليا فزهدنا منه أو تناسيناه في ضبط السلوك، كما يقول ففي غزوة أحد، حيث يتعرض جيش المسلمين لضربة قاسية من حيث المشركين تحت قيادة قريش نرى النبي عليه الصلاة والسلام، يرفض على الرغم من قلة عدد من معه من المهاجرين والأنصار يرفض سند عبد الله بن أبي بن اسلول[2] وهو على رأس المنافقين واليهود ويقول: «لا يقاتل معنا إلا من هو من ملتنا فالإسلام بخلاف السياسيات الوضعية يرى أن الغاية تتأثر بالوسيلة سلبا إيجابا، نبلا وحطة، لذلك يرفض المساومة، في المبادئ والمثل، ولم يكن هذا الموقف مجرد اندفاع خاص في لحظة معينة حيث أن القرآن لخص كل معاني هذا الموقف، في الآية الكريمة، ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴾ [التوبة: ٤٧] فالجديد في هذه الآية السبب الفعلي الحقيقي لتجنب القتال مع متطوعين غرباء عن الثورة أي مجرد مرتزقة كما نقول اليوم. بلغة العصر ولعل هذا النظر كان من وراء طرح جديد لمفهوم الثورة عند مالك بن نبي حيث يقول: «الثورة ليست كإحدى الحروب تدور رحاها مع العدد والعتاد، بل إنها تعتمد على الروح والعقيدة.»[3]

ويرى مالك بن نبي أن لكل ثورة منهجا يتضمن المبادئ التي تسير عليها، كما يتضمن فحوى القرارات التي ستمليها عليها ظروف الطريق فموقف أب بكر بعد وفاة الرسول الكريم من القبائل التي ارتدت من العرب وزعمت أنها لا تدفع الزكاة وتبقي على غير ذلك بما جاء في الإسلام، ويبدوا لمعاصريه بعض التشدد والغلو وقد يكون أيضا موقف المرتدين غير بعيد عن المعقول الذي يساند ظهرهم إذا قدرناه من الجانب المادي فحسب دون الرجوع إلى مبدأ، يؤكده المنهج ويقره قولا وعملا بمعنى تقره فلسفة الثور ة القائمة وقتذاك، وكاد عمر بن الخطاب يكون على هذا الرأي لولا إصرار أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وفصله

(١) مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر دمشق، سوريا، الإعادة السادسة ٢٠٠٦ م ص، ١٥.

(٢) عبد الله بن أبي بن سلول، يلقبه المسلمون بكبير المنافقين لديه ولد اسمه عبد الله (على اسم ابيه) وأصبح لولده شأن في الإسلام. لأنه يقال أنه كان على وشك أن يصبح سيدا على المدينة قبل وصلها النبي.

(٣) مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص، ١٥.

الموقف بقوله: «والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه لرسول الله لقاتلتهم عليه». وبالفعل قد قاتل المرتدين حتى نصره الله عليهم النصر المبين. فهذا الموقف لعمر بن الخطاب موقفا ثوريا يجب أن نستنتج منه العبر الكافية والدروس لكل ثورة مقبلة والعبرة التي نأخذها منه هي: «أننا إذا لم نحفظ في عقولنا وقلوبنا مقدمات ومسلمات الثورة فلن نفقد (عقالا) فقط بل نفقد الروح الثوري ذاته»[1] لهذا الفعل الثوري يجب على صانعي الثورة أن يعضوا على مبادئ الثورة و يشدوا عليها بالنواجذ لأنها أساس التغيير والأرضية القوية في تشييد الصرح الحضاري من جهة ومن جهة أخرى إذا أرادوا أن يحققوا لها عدم الانحراف عن المسار، ولعل هذا ما جعل مالك بن نبي ينظر إلى المسألة بنظرة مغايرة لزوال الثورة وحل محلها «لا ثورة» حيث يقول: أن الثورة قد تتغير إلى «لا ثورة» بل قد تصبح ضد الثورة بطريقة واضحة خفية والأمر الذي لا يجوز أن يغيب عن أذهاننا في هذا الصدد هو أن مجتمعا بمقتضى طبيعته البشرية ينطوي على خسائر من روح «ما ضد الثورة» طبقا لمبدأ التناقض تناقضا مستمرا حتى في فترة ثورية بالإمكان تتبع آثاره في تاريخ كل الثورات[2] بحيث لا يغني أن تدفع عجلة الثورة في وطن ما، بل يجب أن تتبع حركتها ورقابتها وصيرورتها من حيث الاستمرار بعد ذلك وهذا لغرض يتمثل في عدم خروج الثورة عن مسارها الصحيح ويذهب مالك إلى هذا الرأي مصرحا على أن الثورة هي الأساس في تصحيح أوضاعنا والالتفات إلى أخطاءنا لتفادي خطورتها وتجاوز عوائقها لأجل بناء المستقبل، فلا نخشى أخطاء الثورة بل يجب أن نكتشفها ونستفيد منها يقول مالك: «فلسفتنا الثورية بأجمعها». فالثورة حين تخشى أخطاءها ليست بثورة و إذا هي اكتشفت خطأ من أخطائها ثم التفت عنه فالأمر أدهى وأمر، وفي هذا الصدد نذكر قول ماركس «يجب دائما أن نكشف الفضيحة عندما نكتشفها حتى لا تلتهمنا»[3].

إن هي ثورة تريد أن تصل إلى هدفها، يجب أن تدفع الثمن وبهذا الثمن وحده تستطيع ذلك.

---

(١) نفسه، ص، ١٦.

(٢) مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، ص، ١٤.

(٣) المرجع نفسه، ص، ١٦.

أخلاقيات الثورة

مهما كانت الثورة فإنها لن تستطيع تغيير الإنسان إن لم تكن تقوم على قواعد أخلاقية قوية إن (روبسبيير)[١] و(سان جوست) وهما من هما في الثورة الفرنسية يمثلان قبل كل شيء أنضج صورة لأخلاق ثورية لا تنازل فيها وبهذا فإنه لا يجوز ولا يمكن أن نذهب بعيدا عن الحقيقة ونستغرب الأمر إذا لم نجد توافقا بين الثورة وبين شخصية الفرد سواء أوجدها هو نفسه أو وجدته حيث إن ثورة تقوم " لا تكون حقيقية لمجرد ما تجتهد في نشر العدالة الاجتماعية بين طبقات الشعب، إذ هي لم تعلمه كيف يستعيد شخصيته، وتلقنه معنى كرامته، ويرى مالك أن هذه الاعتبارات عن وظيفة الأخلاق، فإنها ليس بنت الأمس، فقضية تكريم الإنسان لم تهمل ولم تنس في الثورة الإسلامية منذ أربعة عشر قرنا، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠].

هكذا نجد القرآن أنه وضع مرتبة عالية للإنسان تمثلت في آية لكرامته، وهي تمثل قاعدة أخلاقية قوية سامية بالنسبة لدنياه ولآخرته.[٢] ولا يجوز للإنسان أن يخالف في سلوكه هذا التكريم، الذي لا يضمن له حقوقا فقط، بل يفرض عليه واجبات أيضا.

إن هذه الازدواجية تتمثل في أحسن حديث عن حكيم بن حزام إذ يقول: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني ثم قال لي: يا حكيم إن هذا المال خضر حلو، فمن أخذه بسخاء نفس بورك له فيه ومن أخذه باستشراف نفس لم يبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى قال حكيم: فقلت يا رسول الله، والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحدا بعدك شيئا حتى أفارق الدنيا، فكان أبو بكر يدعو حكيما ليعطيه العطاء، فيأبى أن يقبل منه شيئا، ثم إن عمر دعاه ليعطيه فأبى أن يقبل فقال: يا معشر المسلمين، إني أعرض عليه حقه الذي قسم الله له من هذا الفيء، فيأبى أن يأخذه. فلم يرزأ حكيم أحدا من الناس بعد النبي ﷺ، حتى توفى رحمه الله. يلخص ويوضح لنا

---

(١) اكسميليان روبسبير (١٧٥٨-١٧٩٤)، محامي فرنسي وزعيم سياسي. أصبح أحد أهم الشخصيات المؤثرة في الثورة الفرنسية والنصير الرئيسي لعهد الإرهاب وهو من أشهر السفاحين على وجه الأرض، إذ قتل ستة آلاف شخص في ستة أسابيع فقط.

(٢) مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر ٢٠٠٦م ص، ٢٥.

هذا الحديث كل ما نسميه «أخلاقية الثورة» إعطاء الإنسان حقه ولكن مع الحفاظ على كرامته، فنرى في موقف حكيم بعد وفاة النبي، الثمن الحقيقي حين يرفض حقه من الفيء وإذا كانت الثورة بحاجة إلى فلسفة أخلاقية لا تتنازل عن شيء، فمن واجبها أيضا أن تتمتع بحاسة نقدية لا يفوتها شيء حتى لا تؤخذ على غرة في أي لحظة وفي أي قطاع من أجهزة الدولة، وهذه الروح النقدية مأخوذة بدروها من القرآن الكريم والسنة النبوية قولا وفعلا وعملا ومن سير الخلفاء الراشدين.

الثورة والتغيير

في تحليل مالك بن نبي للثورة من الناحية السوسيولوجية والنفسية معتمدا في ذلك على نظريات الثقافة والحضارة، وأيضا مستجدات العصر الذي عايشه حيث يرى أن الثورة لا تستطيع الوصول إلى أهدافها إذا لم تغير الإنسان بطريقة لا رجعة فيها، من حيث سلوكه وأفكاره وكلماته ونمط حياته واستهلاكه... إلخ.

والنظر في عمق القضايا واستنطاقها فإن أي ثورة ما لا بد لها أن تسير وفق القانون الاجتماعي الذي يكون من منطلق إرادة الفرد فهو موجود في ذاته، وهذا القانون الاجتماعي تعبر عنه الآية الكريمة أيضا قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الرعد: ١١].

الخلاصة، إن الثورة عنده ليس مصطلحا من المصطلحات السكونية في علم الاجتماع، بل وهو مصطلح تفعيلي وفاعل في إبراز الحراك الاجتماعي، وظهور شبكة عالم الأفكار التي تعمل على التغيير، وفي مجالات حياة الإنسان من كل نواحيها، والتغير هو ما يسمى بالحركة أي: بالجماعة التي تتغير وتتحرك ضمن وسط إنساني، يتضمن مقوم أساسي يقهر الجمود والخمول حينما يحولها إلى قيم ديناميكية حركية.

المصادر والمراجع

- قرآن كريم.
- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، طبعة جديدة ومنقحة.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، ١٩٨١ دمشق، سوريا.
- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع شبكة العلاقات الاجتماعية، ترجمة عبد الصبور شاهين من إصدار ندوة مالك بن نبي، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م دار الفكر.
- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت لبنان، دار الفكر دمشق، سوريا، إشراف وتقديم المحامي عمر المسقاوي، ترجمة الدكتور بسام بركة، والدكتور احمد شعبو ١٤٢٣هـ ٢٠٠٢ م.
- مالك بن نبي، تأملات دار الفكر العربي الجزائر، دار الفكر دمشق سوريا.
- مالك بن نبي، بين الرشاد والتيه، دار الفكر دمشق، سوريا، الإعادة السادسة ٢٠٠٦م.
- عبد اللطيف عبادة، فقه التغيير في فكر مالك بن نبي، مؤسسة عالم الأفكار للنشر والتوزيع الجزائر، الطبعة الثانية سنة ٢٠٠٧.
- عبد اللطيف عبادة، صفحات مشرقة من فكر مالك بن نبي، دار شهاب للطباعة والنشر، باتنة الجزائر.
- بتريم سوروركين، المدرستان الاقتصاديتان والميكانيكية في علم الاجتماع، ترجمة صائم الكعبي، دار الحداثة، بيروت، ١٩٧٩م.
- قادة بحيري، محطات اقتصادية من فكر مالك بن نبي،
- ينظر كتاب لزهر بديدة، دراسات في تاريخ الثورة الجزائرية وأبعادها الإفريقية، الناشر دار السبيل للنشر والتوزيع، الجزائر.
- أحمد حمدي، الثورة الجزائرية والإعلام، دراسة في الإعلام الثوري، نشر وزارة الثقافة بالجزائر بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية ٢٠٠٧.

- فانون، معذبوا الأرض، تر، سامي الدروبي، وجمال الأتاسي، دار القلم، بيروت، ١٩٧٢م.
- مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر، ١٩٨١ دمشق، سوريا،
- محمد شاويش، مالك بن نبي وشروط النهضة، التبيين، عدد، ١٩ الجزائر جمعية الجاحظية.
- محمد العبدة، مالك بن نبي، مفكر اجتماعي ورائد إصلاحي، دار القلم، دمشق.